حوليات آداب عين شمس المجلد ٥٠ (عدد يناير – مارس ٢٠٢٢)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)

رواية "سيدات زحل" تحليل للرموز الاسطورية والاستعارات العجائبية

سندس فوزي فرمان*
زاهرة توفيق أبو كشك**

*قسم اللغة الفرنسية والإنجليزية وآدابهما، كلية الآداب، جامعة الزيتونة الأردنية، عمان، الأردن
sundusfarman@zuj.edujo
**قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الزيتونةالأردنية، عمان، الأردن
dr.zahirak@zuj.edu.jo

المستخلص

تتخذ الكاتبة من الرموز الأسطورية في روايتها هذه وسيلة لفضح قبح الواقع، وكشف جميع ملابساته وإشكالاته اللامعقولة. تتلبس الرموز الأسطورية في هذا العمل بكل ما يثير مشاعر الرعب والخوف في وجدان المتلقي وتعتمد الكاتبة في جزء كبير من سردها على المسخ والاحلام ذات الطابع الاسطوري، بكل ما تتضح به من أبعاد سلبية، وصور مشوهة عما ينبغي أن يكونه الواقع. ويأتي هذا الجانب المسخي فضلا عن كثافته محملا بكثير من الأبعاد، والمرجعيات المتنوعة، من أسطورية، وتاريخية، وسياسية. وتوظف الكاتبة كثيرا من تراث المتصوفة، ولغتهم الحافلة بكثير من طاقات الخارق والأسطوري، لشحذ شق كبير من تجليات الحس الأسطوري.

كلمات مفتاحية : لطفية الدليمي – الواقعية السحرية – الإسطورة – الأدب العجائبي

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢٢.

مقدمة:

تنتمي هذه الرواية إلى "الواقعية السحرية"، وهي تيار ازدهر في روايات وقصص أمريكا اللاتينية، يقوم على الفانتازيا، التي تختلط في أحداث تلك الأعمال السردية الوقائع المعقولة باللامعقولة والممكن والمستحيل، ففي العديد من كراساتها تصف لطفية الدليمي العالم العجائبي والمدهش الذي رافق سيرة بغداد منذ نشأتها حتى ما بعد الاحتلال الأمريكي. وعبر هذه السردية السحرية، تحاول، كما يقول الناقد ناظم عودة، اكتشاف خصائص هذه المدينة العجيبة وإعادة صياغتها على وفق وجهة نظر تستوعب ما هو تاريخي وسياسي واجتماعي وثقافي في إطار من السرد الذي يريد أن يفسر الحاضر بالماضي، وينظر إلى مستقبل محطم بعين الماضي الجريحة أيضا(العزّي، ٢٠١٨).

وعلى هذا، ليس من الممكن تحاشي تداخل الأزمنة والأمكنة والشخصيات إلا عبر استعمال الفنتازيا والخرافة لتقديم صيغة أسلوبية مقبولة لدى قارئ عايش جزءاً من تلك الأحداث البغدادية. وهكذا، فإن "سيدات زحل" تعيد تنشيط المتون الفجائعية عبر أساليب سردية شيقة، حتى كأننا نقرأ تاريخاً وجيزاً ومكثفا لتلك الفجائع التي لازمت بغداد كطالع شؤم مثل طالع زحل في الميثولوجيا القديمة. وكانت "الكراسات السردية" طريقة أسلوبية موفقة لقص تلك الفجائع القديمة والمعاصرة على حد سواء، فالماضي يزحف باتجاه الحاضر، والحاضر يتقهقر نحو الماضي بإيقاع سردي متسارع يضاعف من ضربات قلب القارئ الذي وقع تحت وطأة سرد مأساوي). لكن من زاوية أخرى يمكن اعتبار ذلك رؤية فلسفية ترى في الزمن فعلاً يمكن استعادته كما تستعاد الأرواح عبر "الحلول".(حمودي، ٢٠١٦)

نقرأ في الرواية أنموذجاً من هذه الواقعية السحرية":أبو نؤاس كان يترنح ثملاً والدموع تسح على وجنتيه الضامرتين ما بين فندق الميريديان والشيراتون اللذين استوطنت فيهما القوات الأمريكية ووسائل الإعلام الأجنبية، جندي من المارينز أطلق الرصاص من مكمنه نحو الشاعر المترنح[...لكنه]يمضي قدماً غير آبه بالنار، يهبط إلى شاطئ دجلة صحبة شهريار... تتقدمهما شهرزاد بغلالاتها الدخانية وخلاخيل الذهب تصلصل مع خطوتها... رأيتهم ثلاثتهم يمضون في زورق صغير، وأبو نؤاس يحرك المجذافين ليغيبوا مع انحدار دجلة.(عليوي، ٢٠١٧)

تتسع الرواية مكانياً لتمتد من بغداد إلى شمال العراق وجنوبه، وسوريا ولبنان والأردن والمغرب ونيقوسيا وتونس وبحر قزوين وتبليسي ولندن وكوبنهاغن، وسواها من المدن والحواضر التي وطأتها أقدام الشخصيات الهاربة، أو المختفية، أو الطالبة لحق اللجوء السياسي والإنساني. وتتوزع الأمكنة على أمكنة واقعية وأسطورية وحلمية وافتراضية، مفتوحة ومغلقة، آمنة ومعادية، مجازية وهندسية، نتعرّف من خلالها إلى أنماط مختلفة من النماذج والتجارب البشرية، ومعاناتها ورؤاها.

مشكلة الدراسة

من الأسطورة نهلت لطفية الدليمي صفات القِدم والخصب والحكمة، التي تتميز بها بلاد ما بين النهرين، ولعل هذا ما يجعل زحل علامة رمزية تشير إلى "العراق"، وسيداته يرمزن إلى نساء العراق، كما نهلت رمزية الماء (أحد تجلياته)، الذي هو أصل كل شيء، ومنه ظهرت الحركة وتفتقت من قلب السكون (فعل الخلق وانبثاقه عن المياه الأولى/ الأنثى)، فجعلت شخصية "حياة البابلي"، التي "تحب السماء والماء"، و"تتوهج عند هطول المطر"، علامتها الماء وآيتها الرعد، مركزا وبؤرة لكل أحداث الرواية "قال لي إنني أذكّره بطوفان الأنهار"، و"قال لي ستلدين لنا ولدا في يوم ماطر".

ويشكل اسم "حياة" علامة تحيل على "شجرة الحياة – الإيلانا" (الإيلانا = الألوهة) في التراث السومري والبابلي. ومن الفلك استعارت رقة المرأة وشفافيتها، حيث أن الحلقة المحيطة بزحل هي أرق صفيحة أو قرص عرفه الوجود، وفي الرواية أغلب النساء حسناوات ورقيقات المشاعر ومرهفات الإحساس، "حياة" بلاغة الخالق في ما خلق، لها شفتان تشعان كثمرتي عناب تحت انهمار المطر، "راوية" ذات جسد فاتن هام بها حامد أبوالطيور، "زينة" ورثت جمالها الأشقر من عائلتها التركمانية، و"شميران" تفيض بالجمال الآشوري. وبإيحاء من التنجيم كشفت لطفية الدليمي عن "نحس طوالع النساء"، " فما من نبوءة لم تتحقق، وما من توقعات لم تحدث، وكل ما أرجأته الكوارث للمستقبل، أو ادّخرته الأيام لبلاد أخرى وقع هنا وانتهى الأمر"، وحفرت في جذر الخراب وامتداداته في العراق "كل ما حولي هباء وموت"، وصوره البشعة في الماضي والحاضر "الزمن دوامات تلتف حولنا وأحداث ماضينا تستعاد بين دورات الزمن، ليس بمحض مصادفة بل بحتمية كونية لا تفسير لها، فأنتقل بين الأزمنة وأحوال مدينتي في عصورها وحكايات البنات، وأصنع صورة من هذا الحطام" المتمثل بالمجازر والفواجع والمجاعات والاختفاءات والإعدامات والأشكال المختلفة من الاضطهاد والقهر والحرمان وانتهاك القيم الإنسانية، التي طالت طبقات وشرائح عديدة من المجتمع العراقي، وعلى نحو خاص هنا

الطبقة المثقفة، المنتجة للمدنية والثقافة، على يد الساسة الطغاة، والمحتلين، والظلاميين (أو كما نسميهم: الثلاثي الكريه: الطغاة، الغزاة، والغلاة). ولذا تسعي الدراسة لتسليط الضوء علي الجانب الاسطوري بالرواية.

أسئلة الدراسة:

ماهي المظاهر الرمزية الاسطورية التي اتبعتها الكاتبة في الرواية؟

كيف اثرت استخدام التعبيرات الاسطوريه والرموز الاسطورية في المعني العام للرواية؟

العجائبية في الرواية

تنسج الروائية العراقية لطفية الحليمي عالما حكائي خصبا، معتمدا على واقع العراق، ومآسيه، وتاريخه الحافل بالحروب والاضطرابات القبائلية والشعائرية. على الرغم من قوة هذا الجانب من جهة، وإلحاحه وضرورته من جهة ثانية، فإن الكاتبة لم تبن عملها هذا على مجرد المحاكاة المسطحة، ولا على الانعكاس الحرفي لنبق الواقع وجفافه بل عمدت إلى مزج هذا المشهد بعدد من مشاهد أخرى عجائبية تفيض غرابة وإدهاشا، لم تسع من خلالها الكاتبة إلى الهرب الاستسلامي من بشاعة الواقع وتجذره، ببناء عالم هش من الخوارق والتهاويم، بل سعت إلى تقمص دور اقتحامي، لا ينزلق على سطح الراهن ويتملقه، أو يجاريه، بل يخترقه ويتحداه ويسلط الضوء أكثر على مدى ما فيه من مرارة وقبح .(شهرة، ٢٠١٦)

ولعل هذا المنطق الاقتحامي المتحدي هو الذي منح هذا العمل ثراءه، وخصبه، ودفقة الشاعري العميق؛ فلم يعد كتابها مجرد رواية تقرأ وتمر مرور الكرام، بل مجموع الأسئلة التي تصدم القاريء بضياع كل ما هو إنسانيّ فينا، وحولنا، إنها ملحمة روائية تكشف عن جذر الخراب، وتلملم شظايا الواقع. ولعل الكاتبة تنبأت بشيء من هول تلك الكوارث واللعنات في شهادة قصصية كتبتها على لسان بغداد، ونشرت في العدد السادس من مجلة الأقلام السنة ٢٠٠١، قبل فاجعة الغزو بنحو السنتين:

"أراكم تنزلقون في المهالك والمتاهات الغريبة، وتتهاوى أسماؤكم في المدن الجديدة التي يبتكرها لكم الزمان، وأرى ما ينتظركم، ولن أخبركم بما أرى، فما يزال في الوقت متسع من المباهج والأمل، مع أن الفناء مخبوء في كل شيء أرى المحن تتخفى في الرمال والمياه والهواء، ولن أبوح لكم بالمزيد، وسأرجئ القول لأني موقنة من أنكم ستبلغون ذلك فيما سياتي من زمانكم وتحرقون تقاويم الحنين إلي بلادكم"

هذه الرؤيا الاستباقية الموغلة في اختراق الظلام، وكشف عبثيته وفوضاه، نجدها مائلة بقوة في هذا العمل الذي يكتظ بمناظر التحول أو الامتساخ، حيث تعج كثير من الصفحات بمشاهد كابوسية، تلقي بظلالها الكئيبة علي المدينة والبشر كليهما؛ فعلى مستوى المظهر مثلا، لا تجد البطلة حياة ما تتألق به سوى ثياب ملطخة بالدم، ممزقة الأكمام، وعلى مستوى العلاقة بالمحيط، نجدها تخوض دخانا كثيفا، يغمره الجنون، ويستحيل الجمع فيه إلى طيور هائمة، أو قطع من الظلام.(العزّي، ٢٠١٨)

"فوضى ذلك اليوم جرفتني في الخبل، كنت ارتدي بنطلونا بلون سكري فاتح ملطخا بالدم، وسترة سوداء تمزقت أكمامها، المارة القلائل مذعورون، يتسربون حولي كالدخان ويختفون، وجموع ضاجة من الشباب تقيم احتفالا مجنونا، والآخرون المصدومون لدخول الأمريكان يهللون تارة، ويصرخون، ويتحولون إلى طيور أو قطع من ظلام . واضح أن هذا المشهد الكابوس الثقيل كان تعبيرا عن أول لحظة عبثية جرت معها أزمنة طوالا من العبث واللاجدوى والموت المجاني الواقع كل لحظة، وكل يوم وبالنغمة الكابوسية نفسها تواصل الراوية توغلها في أحشاء مدينتها المذبوحة، متأنقة هذه المرة بحذاء من مزق، ومجتازة حطام المباني المنهارة حيث تتهاوى النجوم، ويهطل الموت، وتستحيل عباءات النساء أجنحة، وزعانف سمك، وأصوات يمام :" بحذاء أسود ممزق كنت أقفز بين الرماد، والجمر، وحطام المباني المنهارة والنيران تفترس الليل، وتلتهم السماوات، النجوم تتساقط في دجلة، والرياح ترش الموت في الطرقات، رأيت نساء ملفعات بالعباءات، يركضن في الأزقة المظلمة، لهن أجنحة، وزعانف سمك، وأصوات يمام يک برتن مرائي نسب المدينة."

الإشارة الى اللعنات الكابوسية

وهي اللعنة الكابوسية نفسها التي تتحول معها هذه البطلة إلى أشلاء، ونثار مهمل من الرماد، فلا تكاد تستحضر حبيبا غائبا أو قريبا حتى يسبقها الموت إليه، وينتزعه من بين ناظريها، ومن أمثلة ذلك: مدرسة التاريخ في ثانوية بغداد؛ الست فريدة التي تلوح وقد انقلب قوامها الناصع إلى عتمة فائضة، واستحالت عيناها العسليتان الرائعتان إلى ثقبين لا يبصران، تتقدم حياة منها حثيثا، محاولة انتزاع عباءتها، فتصطدم بعماها، ولا تمسك منها سوى بعض الرماد العالق بين أصابعها أقترب منها وأحاول انتزاع عباءتها التي طالت النار أطرافها، ودخنت، أحدق في عينيها، رباه كأنها عميت، اقترب لا تتنحى عن طريقي، ترتطم بي، عمياء كانت، لم أمسك بغير رماد تبقي على أصابعي، تلاشت الست فريدة، وعباءتها، مع فانوسها، ومروحة السعف وأغانيها. ولايفوت الكاتبة أن تتجاوز هذا الجانب اليومي، الذي لفرط تكراره، وانتساخه، غدا هو وحده النمطي، والسائد، والمكرور حد العادة، وما يستتبعها من تبلد، وتحجر في الحسن، والضمير.

وهو التبلد الذي ترفضه الكاتبة، وتقاومه بجميع الوسائل الفنية، والمعرفية، ولذا نجدها هنا لا تكتفي بمجرد رصد توثيقي لهول الفاجعة وإحصاء آلي للخسائر والضحايا، بل تعمد إلى مزج ذلك كله بشيء من وهج الثقافة، ورونقها، الذي يشكل وحده نسيجا فادحا، وثقيلا من الخسارة المسكوت عنها، وغير المعلنة، فنجدها لا تقف عند خسارة الأجساد فقط، بل تتجاوزها إلى ما يلحقها من خسائر ثقافية تطول الخزين الروحي الممتد لآلاف السنين، ضمن حضارة تعد الأعرق بين كل الحضارات القديمة الأولى.

استخدام المسوخ الاستعارية

يطالع المتلقي كثيرا من الصور المسخية المشوهة، بعضها يستمد خصوصيته من المكان، وبعضها الآخر من البشر الذي يسكن المكان، ومن كل ما يحيط به من فنون أبدعها فغدت مسوخا، ومن مبان شيدها فأضحت سجونا، ومن أحلام رعاها فاستحالت كوابيس، تلتهم حاضره وآتيه وأزمنته كلها .

ولعل أبرز مثال على ذلك ما جاء في إحدى الصفحات من وصف المأساة المدينة، وفجائعها الكثيرة، التي غدت معها سماؤها سوادا موشحا بلطخات دموية، واتخذ الدخان أشكال تهاويل ووحوش، وتنانين تقذف اللهب من أفواهها وبغداد تتنفس هواء مسموما، والناس تشرب من ماء الجحيم، وتهرس تحت العقب الساحقة لجيش الغزاة.

في سياق فاجعة المسخ، وانطماس بريق الحياة وبهجتها، نجدها تستعير شهادة أحد النحاتين، تستعير له اسم أمير، وتسوق على لسانه عبارة متطرفة في يأسها ومرارتها : كلنا انمسخنا، وتحول بعضنا إلى وحوش لفرط ما شهدنا من جثث وموتى ومحتضرين على الطرقات، بعضنا صار رقما يبرر الكارثة، الباقون تحولوا إلى مصدات تخفي قبح واقعنا الأليم، وكلنا ساهمنا في اتساع المقابر حولنا.. فهل تتوقع أن نعود بشرا سويا؟ ؟. نحن انمسخنا وانتهى الأمر. أجل ما عدت أنتظر شيئا من حشود الممسوخين.

هذا عن المسوخ الفنية التي أفرزتها الحرب الأخيرة، وما تلاها من كوارث وأهوال، لما مسوخ ما قبل الحرب (صالحي، ٢٠١٣)، فعملت على فضحها من خلال نموذج واقعي، تمثل في أعمال طبيب تجميل وفنان،استعارت له اسم بهاء، وغاصت في عوالمه السريالية المقبضة، المرتكزة على تجميل القبح، وتقبيح الجمال، وخلخلة ابسط مبادئ الذوق السليم ومرتكزاته ؛ فهو البارع جدا في رسم الغربان التي تلتهم أدمغة البشر وعيونهم، رسم في أحد معارضه تفاح الشهوات، وصنع منحوتات فخارية مستعيرا التفاح [...] رسم أجساد النساء التي تلتهمها ديدان التفاح، وتسيل منها قطرات الرغبة السوداء، كان يرسم بشاعات، ويحول الجمال إلى جيفة، بطن المرأة تحول لديه إلى كهف أسود تلتف فيه الأفاعي، رسم جدرانا متصدعة، ورجالا مخبولين وأيد مبتورة، وخيولا مقضومة الرؤوس.

وتقف الكاتبة عند إحدى اللوحات، التي كانت لجندي مغمض العينين شبه ميت أو هو ميت فعلا، تخرج من فجوة في جمجمته تحت الخوذة حمامة وتعرش على كتفه الأيمن أوردة زرقاء بارزة، وفي يده اليسرى التي تحولت إلى عظام يمسك سلاحا.

غير أنها لا تراه كما يراه جبرا ابراهيم جبرا فنانا استطاع أن يبلغ بمأساة الإنسان ذلك المستوى الذي تستوعب عنده الصورة المشاهد في عواطفها المحتدمة لتبلغ به في النهاية حد التطهير من الخوف والشفقة، بالضبط كما أراد أرسطو للمسرحية التراجيدية، بحيث يعود المشاهد بعد دخوله تجربة الفنان وهو أنقى وأقوى، بل تراه مجرما، ووجها گريها من أوجه التسلط والإجرام (الاعرجي، ٢٠١٥)، لم يرعو عن قطع لسان أحد المعتقلين السياسيين حامد أبو الطيور، ولا عن إخصاء زوج البطلة حازم، ولا تشويه آلاف الأجساد، وبتر آلاف الأذرع والسيقان والأذان!

استخدام الأسطورية في الوراية

ونلاحظ أن الكاتبة هنا تستعير فكرة اوفيد عن أسطورة بدء الخليقة، التي يقصها علينا في بداية كتابه: مسخ الكائنات" وكان ثمة عصر ذهبي في بدء الخلق(زغب and أحمد، ٢٠١٧)، أظل قوما على إيمان عميق، ومبادئ سامية، ثم جاء العصر الفضي حيث قسمت السنة إلى فصول أربعة شتاء وصيفا وخريفا متقلبا، وربيعا قصير الأمد، ثم كان العصر الثالث، وهو عصر البرونز، الذي طبع الناس فيه بطابع من الغلظ، والقسوة، غير أن الشر لم يكن قد غلبهم على جميع أمورهم ثم كان أخيرا عصر الحديد الصلب، حيث برزت الجرائم في أبشع صورها.

ولئن كانت فكرة إثارة الرعب، وإقلاق وعي المتلقي - كما مر آنفا من أبرز الوظائف التأثيرية للعجائبية، فإن في عنصر المسخ، وتشويه الكينونة الجوهرية أو المظهرية للذات تكريسا لهذا الرعب، وإعلاء لطاقات الغرابة، التي بها تحقق القصة العجائبية أشد درجات التواصل مع الآخرين (حسين، ٢٠١٨)، لأنها تخاطب قدرة الإنسان على التعجب، والإحساس بالغموض، وتخاطب إحساسه بالشفقة، والألم هذه الأحاسيس الموجودة في أعماق كل إنسان .

استخدام المكان كعنصر عجائبي

وفي هذا العنصر تلوح فسحة أمل صريح، بعكس الفسحة المضمرة التي بدت من خلال عنصر استحضار التاريخ؛ حيث لا تجد حياة وسط الجحيم الملتهم أشلاء المدينة، ووسط الموت الأعمى والكراهية ونحب الحقد والطائفية المستجدة، سوى مكان واحد حميم تحتمي به، وتبثه آلامها، تطالعها من خلاله وجوه احبتها الغائبين؛ يحثونها، ويمسحون بحنان على رأسها، ويحذرونها، وياسون لحالها : رأيتهم ينظرون إلينا من بين سحب الدخان والسنة اللهب، كلهم كانوا في قاع مرآة الرؤيا، وبغداد تلوح من ورائهم بملامحها العباسية، ومن نهى، ونخيلها، ونهرها، وسط الحريق: "أبي، وأمي، وشقيقي ماجد، ومهند، وزينة، وعبد الله شقيق حامد، وحيدر ابن خالتي، ولمى، كل الموتى الذين ابتلعتهم الحروب والمصائب لاحت لي عينا جدتي الشهلاوان تنظران إلي بعزم وكأنهما تشدان أزري، ويداها تتضرعان بين سحب الدخان. " وفي هذا المكان العجائبي المتدرج المرايا؛ وهو سرداب بيت الأسرة؛ سرداب الرؤى والأحلام، تستعيد حياة بعضا مما تشظى من أزمنتها، تلملم جراحها، وتعقد العزم كل مرة على مواصلة الحياة، وتحدي الموت، والتملص من براثنه وأنيابه ؛ فهي لن تكون ضحية سهلة، ولن تتقمص أبدا دور الضحية، وبكل عرق نابض فيها ستظل مقاومة الكره بالحب، وبالفن وبالذكرى والتأمل ؛ تأمل حال الزمن، وتقلباته، وتأمل أطياف الراحلين الأعزاء الري الحي الحياة معجبه اطيانهم العريره في المرايا وفي أحيان أخرى أرتعش هلعا عندما يخيل إلي أنهم سينبثقون من داخل المرايا، ويحيطون بي وانا مستلقية على الأريكة بدأت أرى معهم غرباء كثرا، موتى كثيرين يحاولون بث رسائل للأحياء .

وهنا تبدو رؤية الكاتبة لأرواح الغائبين، وأطيافهم مخالفة للرؤيا البدائية، التي تنظر إلى الأشباح، أو أرواح الموتى على أنها معادية البشر الأحياء، الأقرباء منهم بشكل خاص، حيث القريب الميت لا يبقى قريبا، بل ينقلب غريبا معاديا. فالأموات الغائبون هنا ليسوا بأشباح شريرة تهدد راحة قريبتهم الحية، وتقلق هدوءها، بل هم أطياف رحيمة، وملائكة طاهرون، يحرسون أحلامها، وينسوها جراحها وخيباتها وليس هذا فحسب، بل نجد حياة تستحضر من خلال هذا المكان أيضا شخصية شخص آخر حميم، حي هذه المرة وليس بميت، هو حبيبها الذي يتراءى أمامها بوضوح، متنعما بلقاء امرأة جميلة هي صورة طبق الأصل عنها هي؛ العاشقة، المفارقة الولهانة، وكأن السرداب الحميمي استحال هنا مستودع حفظ خلجات القلب وأشواقه وفسحة تنفيسية، تتخفف فيها النفس من آلامها، ومرارة أحزانها ويرتبط هذا المكان العجائبي بشخص آخر عجائبي، لم يغيبه الموت وتحمل له حياة هذه اللهفة المتاججة، وتتحدث عنه بذلك الغموض الهائل المحيط بشخصية العم، وتكرار حديث الراوية عن غيبته الاختيارية، وكذا ربطها هذه الغيبة بسرداب البيت العجائبي بعقيدة المهدي المنتظر وبغموض حضوره، فلئن كان المرضى، واليانسون، والمطاردون والمضطربون داخليا في وقت كثرت فيه الاضطرابات السياسية، وترعرعت فيه الأوهام، يجدون ملاذهم الأخير في سرداب الإمام، يعملون هناك على التخلص من همومهم عن طريق الصلوات، أو الرسائل إلى الإمام علهم يجدون فيه العزاء، فإن البطلة تجد عزاءها أيضا باستحضار هذا الغائب، وبالاحتماء من عتمة أيامها السرداب بأحلامها، غير أن الكاتبة لم تتقصد كما يبدو الإشارة إلى الجانب العقائدي الدقيق، بقدر ما تقصدت استيحاء الجانب التأويلي الساحر والعجيب من هذه العقيدة.

وفضلا عن فسح الأمل العجائبية الكثيرة، التي تبدت من خلال المكان، ومن خلال الحبيب، والعم، وغيرهما من الأحياء الغائبين فان فسحة أمل أخرى قوية تلوح ملازمة لذات البطلة، ومنبثقة منها . وفيها، ما يجعلها الأقوى، والأشد تأثيرا؛ هي فسحة الكتابة، والإبداع، وتحويل الواقع المشتت إلى وحدة وانسجام، ومحاولة البحث عن مزيد من الأسئلة، والتأملات؛ بوصف الإبداع الفني والأدبي نشاطا تكوينيا، صميما، يخترق جوهر الكينونة الإنسانية، ويؤسس جميع حركاتها، وتموجاتها: إنه الحرفة المليئة بالروح، والعصب، والدم، وهو الإتقان المعجون بالتجربة، والصدق. (شهرة، ٢٠١٦)

دور الرموز الأسطورية في التعبيرات في الرواية

نهلت الدليمي من الأسطورة صفات القِدم والخصب والحكمة، التي تتميز بها بلاد النهرين، لذا فإن زحل هنا علامة رمزية تشير إلى "العراق"، وسيداته يرمزن إلى نساء العراق. كما نهلت رمزية الماء (أحد تجلياته)، الذي هو أصل كل شيء، ومنه ظهرت الحركة وتفتقت من قلب السكون (فعل الخلق وانبثاقه عن المياه الأولى/ الأنثى)(شهرة and شخشوخة، ٢٠١٩)، فجعلت "حياة البابلي" مُحبة للسماء والماء، "تتوهج عند هطول المطر"، ويشكل اسمها علامة تحيل على "شجرة الحياة– الإيلانا"، التي تمثل الألوهة في التراث السومري والبابلي.

وتمثلت الدليمي في الرواية، من خلال رؤية أنثوية مركبة يمتزج فيها الوعي بالذات، هذه التصورات الجمالية والواقعية، في مزيج مركب(لباد and سالم، ٢٠١٧)، لإنتاج بنية دلالية تؤطر شخصياتها، التي دارت عليها رحى الحروب في بلاد الجنون،

وطحنتها كما تطحن حبات القمح، لكن بعضها ظل مقاوما للموت والفناء، متمسكا، على نحو عجيب، بالحياة، مصمما على البحث عن خيط النور ولملمة شظايا الواقع، مؤمنا بطاقة الحب والحلم على التغيير والخلاص.

وبإيحاء من التنجيم كشفت لطفية الدليمي عن "نحس طوالع النساء"، فما من نبوءة لم تتحقق، وما من توقعات لم تحدث، وكل ما أرجأته الكوارث للمستقبل، أو ادخرته الأيام لبلاد أخرى وقع هنا وانتهى الأمر"، وحفرت في جذر الخراب وامتداداته في العراق "كل ما حولي هباء وموت"، وصوره البشعة في الماضي والحاضر.

ترى الكاتبة أن "الزمن دوامات تلتف حولنا وأحداث ماضينا تستعاد بين دورات الزمن، ليس بمحض مصادفة بل بحتمية كونية لا تفسير لها، فأنتقل بين الأزمنة وأحوال مدينتي في عصورها وحكايات البنات، وأصنع صورة من هذا الحطام"، المتمثل بالمجازر والفواجع والمجاعات والإعدامات والأشكال المختلفة من الاضطهاد والقهر والحرمان وانتهاك القيم الإنسانية، التي طالت طبقات وشرائح عديدة من المجتمع العراقي، وعلى نحو خاص هنا الطبقة المثقفة، المنتجة للمدنية والثقافة، على يد الساسة الطغاة، والمحتلين، والظلاميين(الاعرجي، ٢٠١٥).

والرواية تحفل، في فصولها وكراساتها، بالكثير من صور هذا الحطام: اختطاف النساء واغتصابهن، وإخصاء الرجال وقص ألسنتهم وبتر أعضائهم، وغير ذلك من الجرائم التي ارتكبها جنود الاحتلال، ومسلحو الميليشيات، والتكفيريون، وقطاع الطرق، واللصوص على اختلاف أنواعهم داخل السلطة وخارجها.

الخلاصة والخاتمة

رواية سيدات زحل للروائية العراقية لطفيّة الدليمي عمل سردي مميز بكل ما للكلمة من معنى، فهي مكتوبة بشفافية ندر مثيلها، وبلغة رفيعة الشأن فيها شغف حزين بأحوال المجتمع العراقي فقد عرضت لوحة انسانية مركبة للعراق في حقبتي الاستبداد والاحتلال وتميزت بانتقاء المشاهد السردية وبالرؤية الانثوية للعالم. وجدت في رواية سيدات زحل افضل مدونة سردية عن احوال بلادنا في العقود الاخيرة وندر ان ظهرت رواية عراقية في السنوات القليلة الماضية على مثل هذا المستوى من الجودة في الحبك والبراعة في الصوغ السردي فقد عرضت الشخصية الرئيسة، برؤية أنثوية، تجاربَ مذهلة عمّا حدث لها ولأسرتها، ولعدد كبير من صديقاتها إبان الاحتلال الأميركي للعراق، وخلال سيطرة الجماعات المسلحة على أحياء كاملة من بغداد في ظروف الحرب شبه الأهلية التي مرت بها البلاد قبل بضع سنوات، وما سبق ذلك من حكم مستبدّ أفرغ المجتمع من قيمه الإنسانية والثقافية، فتقوم تلك السيدة بنشر كرّاسات سرّية ارتسمت فيها جميعا حالات لنساء قتلن، أو شردن، أو اغتصبن، أو جرى التنكيل بهن بلا رحمة، وذلك على خلفية عنف متنام مارسه رجال قساة، وتتوالي الأحداث مع وقائع تخص تاريخ بغداد وتأسيسها وتحولاتها وتمتلك الرواية أهميتها الاستثنائية في تمثيل أحوال النساء عامة، ولأنها المدوّنة السردية الكاشفة لأحدى أهم حقب التاريخ العراقي الحديث.

وعلى وفق هذه القراءة المحادية يمكننا توصيف هذه الرواية بأنها نص ملحمي إنساني يعتمد على سيرة أناس عراقيين قادرين على تحمّل المصائب والويلات، وسيرة مدينة عجيبة مثل بغداد قادرة على تحمّل المحن والكوارث لأن عشاقها ومريديها يخبئونها، في أوقات الشدائد، مثل كنز ثمين في أرواحهم التي تحلق على جهاتها الأربع.

"سيدات زحل" ليست مجرد رواية تقرأ، أو درب يعبر، أنها مجموع الاسئلة التي ترتطم بوجوهنا التي تصخرت أمام ضياع كل ما هو إنساني فينا وحولنا. فالرواية نصٌّ روائي يحرضك على طرح الأسئلة /الفعل، لأنه يضعك أمام ضرورة استحقاقات وجودك الإنساني.

ملحمة روائية تكشف عن جذر الخراب وتلملم شظايا الواقع لتعيد بناء الإنسان بالحب واسترداد قدرة الحلم، فبقدر ما تمتلك خصوصيتها العراقية الساطعة، تتجه بقوة إلى كونيتها لتكون حكاية الجميع وحلم الجميع وتاريخ الجميع قتلة ومقتولين وعشاقا وحالمين ورؤيويين.

كثيرون هم الذين كتبوا عن الحرب العراقية، لكنهم على الأغلب كتبوا المتخيل الذي لم يستطع أن يرقى إلى فظاعة المشهد الواقعي الذي عاشته لطفية الدليمي وكتبته من الداخل، فكتبت تاريخ مدينة وناس من لحم ودم وانعجنت في لحم الحقيقة والواقع الذي يفوق المتخيل إدهاشا وغرائبية.

ما كتبته لطفية الدليمي في هذه الرواية لا ينحصر في كونه تاريخ العراق بل تاريخ وطن كامل يمتد الخراب فيه إلى حدود الحلم واغتيال بياضه وتاريخ الإنسانية المعذبة.

لقد نجحت رواية "سيدات زُحل" في أن تكون بمستوى الكوارث التي حلّت بالعراق منذ تأسيس بغداد، مروراً بسلسلة الاحتلالات التي تعرضت لها العاصمة، وانتهاءً بسقوطها المروّع الذي جسدّته لطفية الدليمي في عملٍ روائي شديد البراعة والإتقان.

Abstract

The novel "The Ladies of Saturn" is an analysis of mythological symbols and miraculous metaphors

BY Sondos Fawzy Farman

And Zahira Tawfiq Abu Kishk

The writer uses the legendary symbols in her novel to expose the ugliness of reality, and to reveal all its unreasonable circumstances and problems. The mythical symbols in this work are covered with everything that evokes terror and fear in the conscience of the recipient. The writer relies for a large part of her narration on metamorphosis and dreams of a mythical nature, with all the negative dimensions that appear, and distorted images of what reality should be. This teratogenic aspect, in addition to its intensity, is loaded with many dimensions and various references, from mythological, historical, and political dimensions. The writer employs much of the heritage of the Sufis, and their language, which is full of the energies of the supernatural and the myth, to sharpen a large part of the manifestations of the mythical sense.

Keywords: Lutfia Al-Dulaimi - magical realism - myth - miraculous literature

قائمة المراجع

الاعرجي، د. ض. ح. م. ٢٠١٥. جمـاليات الأسطورة الشعبية فـي الرسم العراقي المعاصـر. مجلة العلوم الانسانية، ١، ٤٩٢-٥١٩.

العزّي، ن. ح. أ. ٢٠١٨. شعرية البنية السردية في رواية ((سيدات زحل))-سيرة ناس ومدينة-للطفية الدليمي. *Revue algérienne de la recherche et des études*, 203-240.

حسين، ف. ٢٠١٨. فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، Yazouri Group for Publication and Distribution.

حمودي، أ. ك. ٢٠١٦. تمثلات الواقع ومشاكله في الرواية. *Al-Adab Journal,* 1, 105-146.

زغب & أحمد ٢٠١٧. توظيف الأسطورة في الإبداع الأدبي الأصل والرمز والدلالة.

شهرة، ب. ٢٠١٦. تجليات النسق العجائبي في رواية رقصة الجديلة و النهر للأديبة العراقية وفاء عبد الرزاق. *J Jil Magazine of Literary Studies,* 206, 1-11.

شهرة، م. ب. & شخشوخة، م. ٢٠١٩. الرمز في رواية لونجة والغول-لزهور ونيسي.

صالحي. ٢٠١٣. تجلي الرمز والأسطورة في ثلاثية محمد ديب. Université du 20 Août 1955 de Skikda.

عليوي، ح. ع. ٢٠١٧. ثنائية الأنا والآخر في رواية" سيدات زحل" للروائية لطفية الدليمي. مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، ٨٠٢-٨١٢.

لباد، ب. & سالم ٢٠١٧. رمز المرأة في الأسطورة الأمازيغية الجزائرية-أسطورة أنزار أنموذجا.